

غزوة الحجاز والمؤتمر الإسلامي

كيف نشأت فكرة الغزوة؟

لم يكن لجلالة الملك ابن السعود أي فكرة عن غزو الحجاز وفتحه حتى سنة ١٩٢٣م؛ أولاً: لزنه لم يكن واثقاً تمام الوثوق بإمكان تغلب قواته على الحجاز ، وثانياً: لأنه لم يكن واثقاً من موقف الحكومة البريطانية، ويحقيق له أن يحسب لموقفها ألف حساب؛ فهي التي أرغمته على ترك الحجاز والرجوع إلى نجد سنة ١٩١٩م بعد ضرب القوات الشريفة في تربة، وقد كان في إمكان قواته في ذلك الوقت أن تتقدم وتستولي على الطائف ومكة، لولا إنذار إنجلترا له بأنها تعتبر تقدمه في الحجاز عملاً عدائياً موجهاً ضدها.

من سنة ١٩٢٢م رأينا علاقات الملك حسين تسوء مع المصريين، فرجع المحمل من جدة، كما ساءت بينه وبين الإنجليز والهنود على شتى المسائل: على المعاهدة، والبعثات الطبية، وسوء معاملة الحجاج الهنود، مع عجزه عن تأمين الطريق بين مكة والمدينة. ومما لاشك فيه أن فريقاً كبيراً من مسلمي الهند ومصر لم ينظروا نظرة استحسان لقيام الشريف حسين ضد الأتراك؛ ولهذا فإنهم قابلوا إعلان الملك حسين نفسه خليفة سنة ١٩٢٤م في فلسطين إثر إلغاء الخلافة التركية بالاستياء الشديد.

كانت نجد حتى سنة ١٩٢٣م تكاد تكون في عزلة تامة عن العالم، وقد أتاح لها الملك حسين الفرص، فهل تركها تغفلت من يدها، لقد تمكن مستشارو السلطان عبدالعزيز من إقناعه بفائدة الاتصال بالعالم الخارجي، وكنت في المقدمة، فنبداً بإرسال برقية منه إلى جلالة الملك فؤاد يهنئه بافتتاح أول برلمان

(١) لارتباط المسألتين ببعضهما ارتباطاً وثيقاً وضعناهما بجانب بعضهما.

مصري، ثم بأحد الأعياد، وأعلن الأمير فيصل في منشوراته كلها موقف نجد إزاء مسألة الخلافة، وإزاء بعض المسائل العربية، كالاتحاد العربي، واتصلت الهيئات الإسلامية في الهند بسلطان نجد، وتم التفاهم على الأغراض الإسلامية العامة، والجميع متفقون على الاستياء من حالة الحجاز وسوء النظام السائد فيه.

أخذت كتب التأييد ترى من سائر المدن الإسلامية، وقوى الصلة بين نجد ومصر أن جلالة الملك عبدالعزيز شارك علماء مصر في موقفهم حيال مسألة الخلافة وحلها في مؤتمر يعقد في مصر، فاكسبت نجد قوة أدبية لا تنكر.

فشل الإنجليز في محاولتهم تصفية المشاكل بين ابن عود والأشراف في مؤتمر الكويت، وكان المسئول الأول عن هذا الفشل الملك حسين، وخرج ابن السعود من المعركة ظافراً؛ لأنه كان متواضعاً في مطالبه على خلاف الأشراف، فإنهم كانوا مغالين، ولو أن الأشراف انتصروا على ابن السعود في الحرب وأملوا عليه ما يريدون من الشروط لم تكن شروطهم أشد قسوة مما اشترطوا، فكيف وهو حتى هذه الساعة لم يهزم له جيش والبلاد التي يطالب بها الملك حسين ويدعى ملكيتها لاتزال بيده. وضعت نجد لأول مرة الكتاب الأخضر وشرحت فيه المسائل المختلف عليها، وما يطالب به الحجاز وشرق الأردن والعراق ليكون الموضوع كله أمام العالم الإسلامي والعربي، فكانت خطوة موفقة اكتسب بها السلطان عبدالعزيز عطف عقلاء العرب والمسلمين، ولكنه لم يصغ إلى ما أشار به مستشاروه من الهجوم على الحجاز ولو لتصفية الخلاف مع الملك حسين لاعتبارات كثيرة.

خرج السلطان من مؤتمر الكويت وهو موقن بأن الأشراف لا يريدون به خيراً، وأنهم لا يألون جهداً في خلق المشاكل له ولبلاده، ولكنه قنع أخيراً بفكرة الهجوم

على الطائف والاستيلاء عليه فقط ليساوم الملك حسيناً عليه، فلعل الرجل يعدل ع غطرسته؛ وتقرر أن يكون ذلك بعد رجوع الحجاج إلى ديارهم دفعاً لما قد يحدث من المشاكل، وسينجلي موقف الملك حسين وموقف الحكومة البريطانية بعد احتلال الطائف.

لقد كنت موقناً بأن الإخوان سيتغلبون على قوة الشريف، وموقناً بأن انكلترا ستقف موقف الحياد، لأن سياسة ابن السعود إزاءها كانت سياسة مجاملة تامة وودية للغاية بعكس سياسة الملك حسين.

جاء عيد الأضحى وقدم رؤساء الإخوان - أهل الخرمة وعتيبة وأهل الغَطَفَ - وغيرهم من قادة الإخوان للمعايدة على ولي أمرهم، وانتهزوا هذه الفرصة وعرض عليهم مسألة غزوة الحجاز فهشوا وبشوا للمشروع، لأنهم سيظهرون بيت الله من البدع وينشرون دين الله الصحيح، ولأنهم سيغنمون الأموال وقد ذاقوا حلاوتها في تربة، كما سيغنمون أجر الجهاد من الله. وقد وضعت خلاصة عما دار في المؤتمر من الأحاديث وأرسلت إلى جميع الصحف العربية والهندية، فكان لها صدى استحسان.

ترك الإخوان الرياض إلى بلدانهم ليستعدوا للجهاد: جهاد الملك حسين، وما أسهل استعدادهم للغزو، وهل يحتاج الأمر إلا إلى الناقة والبندقية والزاد والذخيرة؟ لم ينتصف شهر المحرم سنة ١٣٤٣ حتى بدأ الإخوان بمناوشاتهم مع بادية الحجاز وأكثرها ناقم على الملك حسين، ثم أخذوا يتقدمون وجيوش الملك حسين لا تقف في وجوههم حتى استولوا على الطائف في ٥ صفر ١٣٤٣، ثم وقفوا ينتظرون أمر مولاهم. ولقد حاول الملك حسين أن يستغل الحوادث التي وقعت في الطائف ضد خصمه في تنفير العالم الإسلامي، ولكنه فشل في ذلك

ومرت الحادثة بدون أن يكون لها أثر عظيم في نفوس المسلمين . وبرنامج ابن سعود خلال يجتذب النفوس ويتفق مع الروح الطيبة التي يتمناها عقلاء المسلمين لمهبط الوحي .

إن برنامجه أنه لا يريد الفتح ولا علواً في الأرض ولا فساداً، وكل ما يريده هو طرد الأشراف وتطهير بيت الله ومهبط وحيه في ظلمهم وتحكمهم، وأن مكة للمسلمين عامة، وأنه سينزل على رغبة العالم الإسلامي في ذلك كله .

ظل الإخوان في الطائف ينتظرون أمر إمامهم، وليس هنالك سيارات أو تلغراف بين الطائف والرياض . والمواصلة الوحيدة هي الجمل ؛ والمسافة ذهاباً وإياباً لا تقل عن ٢٥ يوماً، إذن يجب أن ينتظر الإخوان هذه المد وسلطاتهم قد شدد عليهم ألا يتجاوزوا الطائف، وإلا فهو ييراً إلى الله منهم، أي أنهم سيكونون عاصين في عملهم، ولا داعي إلى ذلك، فالغنائم التي استولوا عليها تحتاج إلى وقت لتقسيمها بينهم بالعدل .

جمع الملك حسين آخر مالدیه من جنود وجهزمهم بآخر مالدیه من الأسلحة، وسيرهم إلى الطائف لضرب الإخوان وطردهم منها، وهنا كانت معركة الهدى التي انقضت فيها الإخوان على جنود الملك حسين وهزموهم هزيمة منكرة، واستولوا على جميع ما كان لديهم من مال وسلاح .

هنا رأى الملك حسين أنه لم يبق له مقام في مكة، فاستعد للرحيل منها وتنازل عن الملك لولده علي، بعد أن أدخلوا مكة ونقلوا كل ما يمكن نقله، ثم دخل الإخوان مكة صلحاً لا حرباً، فدخلوها خاشعين، وتولى الشريف خالد بن لوى إمارة مكة ولقد صدق المثل « كما تدين تدان »، فكما سلب الشريف حسين البدو على الأتراك وبيوتهم، فأعملوا فيها يد النهب والسلب، كذلك سلب الله عليه

الإخوان فقاموا بنفس الرواية التي مثلت مع الأتراك، ما عدا القتل فإن يدهم لم تمتد إلى قتل أحد في مكة.

وبعد فتح مكة أرسلت الدول التي لها ممثلون في جدة مذكرة إلى الطرفين المتحاربين يذكرونهما برعاياهم وحسن معاملتهم، ويحملونهما تبعة ما يقع عليهم من الأضرار، وأنهم جميعاً سيقفون موقف الحياد في النزاع بين الفريقين، فكانت هذه المذكرة أحسن بشرى للملك الذي كان يساوره بعض القلق، فعجل بالسفر إلى الحجاز ليتولى بنفسه استصفاء الحجاز، وليحول دون تكرار مأساة الطائف. ولم يكن هنالك ما يمنع الإخوان من الاستيلاء على جدة، لولا ما أمرهم به إمامهم، فكانت هذه خير فرصة للشريف علىّ حصن فيها جدة، وحشد فيها من القوات العسكرية التي جمعها من فلسطين وشرقي الأردن ما جعلها تقاوم نحو سنة.

غادر السلطان عبدالعزيز الرياض في ١٣ ربيعثاني سنة ١٣٤٣-١١ نوفمبر سنة ١٩٢٤، فودعه أهلها وعلماؤها وكبار أعيانها، وقد ودع أهلها بهذه الكلمات الخالدة التي نشرتها الصحف في حينها واعتبرها العالم الإسلامي عهداً جديداً لبلد الحرام.

* * *

إني مسافر إلى مكة لا لتسلط عليها بل لرفع المظالم والمغارم التي أرهقت كاهل عباد الله، إني مسافر إلى مهبط الوحي لنبسط أحكام الشريعة، ونؤيد أحكامها، فبعد الآن لا يكون سلطان في مكة إلا الشرع، وجميع الرؤوس أتعاطى للشريعة. إن مكة للمسلمين كافة، فأمر إدارتها وتنظيمها يجب أن يكون طبق وغائب العالم الإسلامي.

إننا سنجتمع بوفود العالم الإسلامي هناك وستبادل معهم الرأي في كد
الوسائل التي تجعل بيت الله بعيداً عن الشهوات السياسية، وتحفظ راحة قاصدي
حرم ا .

* * *

وقد وصل إلى مكة المكرمة في ٨ جمادي الأولى سنة ١٣٤٣ - ٥ ديسمبر سنة
١٩٢٤ فدخلها دخول العبد الخاضع والمسلم الخاشع، لا الملك الفاتح، ولا الجبار
المتكبر، فكان وصوله إلى مكة أكبر مصدر للطمأنينة، وأكبر مواساة للجروح
الكليمة التي تركتها قسوة الإخوان في الطائف، رأي أهل مكة والوافدون للتحية
من شيوخ القبائل في سلطان نجد رجلاً نبيلاً متواضعاً حسن المعشر، واسع الصدر
نصيراً للضعيف ملاذاً للمحتاجين، فأحبوه وأجلوه وأكبروه، وكانوا يقولون في
أنديتهم لولا غلطة الإخوان وخشونتهم وقسوتهم لكان عهد ابن سعود في
استتباب الأمن، والضرب على أيدي المفسدين، والقضاء على البدع والمنكرات
لا يعادله إلا عهد الصحابة والتابعين.

وقد رأى يشاقب فكره وبعد نظره أن يزيد الطمأنينة في النفوس، ويؤكد ما
سبق لكاتب هذه السطور إعلانه على كبار الحجاز وأعيانه قبل وصول عظمة
السلطان ببضعة أيام فأمر بنشر المنشور الآتي :

لمن في مكة وضواحيها من سكان الحجاز الحاضر منهم والباد.

نحمد إليكم ا الذي لا إله إلا هو رب هذا البيت العتيق. ونصلي ونسلم
على خاتم أنبيائه محمد صلى ا عليه وسلم.

أما بعد فلم يقدمنا من ديارنا إليكم إلا انتصاراً لدين ا الذي انتهكت

محارمه ، ودفعاً لشروور كان يكيدھا لنا ولديارنا من استبد بالأمر فيكم قبلنا ، وقد شرحنا لكم غايتنا هذه من قبل ، وھا نحن أولاد بعد أن بلغنا حرم ا نوضح لكم الخطة التي سنسير عليها في هذه الديار المقدسة لتكون معلومة عند الجميع فنقول :

(١) سيكون أكبر همنا تطهير هذه البلاد المقدسة من الأعداء أنفسهم الذين مقتهم العالم لإسلامي في مشارق الأرض ومغاربها بما اقترفوه من الآثام في هذه الديار المباركة .

(٢) سنجعل الأمر في هذه البلاد المقدسة بعد هذا شوري بين المسلمين ، وقد أبرقنا لكافة المسلمين في سائر الأنحاء أن يرسلوا وفودهم لقعد مؤتمر إسلامي عام يقرر شكل الكومة التي يرونها صالحة لإنفاذ أحكام ا في هذه البلاد المطهرة .

(٣) إن مصدر التشريع والأحكام لا يكون إلا من كتاب ا ، ومما جاء عن رسول ا عليه الصلاة والسلام أو ما أقره علماء الإسلام الأعلام بطريق القياس أو أجمعوا عليه مما ليس في كتاب ولا سنة ، فلا يحل في هذه الديار غير ما أحله ا ، ولا يحرم فيها غي ما حرمه .

(٤) كل من كان منالعلماء في هذه الديار أو من موظفي الحرم الشريف أو المطوفين ذو راتب معين فهو له على ماكان عليه من قبل ، إن لم نرده فلا ننقصه شيئاً ، إلا رجلا أقام الناس عليه الحجة أنه لا يصلح لما هو قائم عليه ، فذلك ممنوع مما كان له من قبل ، وكال من كان له حق ثابت سابق في بيت مال المسلمين أعطيناه حقه ولن ننقصه منه شيئاً .

(٥) لا كبير عندي إلا الضعيف حتى آخذ الحق له ، ولا ضعيف عندي إلا الظالم حتى آخذ الحق منه ، ولسي عندي في إقامة حدود ا هواده ولا يقبل فيها شفاعة ، فمن التزم حدود ا ولم يتعدها ف أولئك من الأمنين ، ومن عصى

واعتدى ف إنما اثمه على نفسه ولا يلومن إلا نفسه . وا على ما نقول وكيل وشهيد: وصلى ا على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم .

عبد العزيز بن عبدالرحمن الفيصل السعود

١٢ جمادي الأولى سنة ١٣٤٣

فكان لهذا المنشور أثره السحري لا في نفوس الحجازيين فحسب، بل في العالم الإسلامي قاطبة، وأخذ مركز ابن سعود يحتل قلب كل مسلم مخلص وأخذ نجم الأشراف في الحجاز في الأفول وحكمهم في الزوال .

حاول الملك علىّ عقد الصلح، فوسط الأستاذ الريحاني ومستر فلبى (والسيد طالب) النقيب، ولكن البرنامج معروف: المسألة إسلامية يا ريحاني ويا مستر فلبى، فليس من شأنكما التوسط فيها، والرأي يا «سيد طالب» للعالم الإسلامي، فما على الأشراف إلا أن يرحلوا من الحجاز، ويجتمع مؤتمر إسلامي ينظر في مسائل الحجاز، من كل نواحيه .

وقد مضت مدة والحرب دائرة بين الطرفين، وكل يعاني شدتها، ولكن شدتها على الملك علي كانت أشد على كل حال . وفي أبريل سنة ١٩٢٥م عرض قنصل السوفيت ووكيل قنصل إيران، ووكيل قنصل هولاندا وساطتهم للصلح بصفة خاصة، لأن دولهم لم تكلفهم بذلك، فلم يقبل السلطان ذلك .

وفي مايو من السنة نفسها قدم فؤاد بك الخطيب وزير الخارجية إلى معسكر السلطان ابن سعود محاولا الوصول إلى طريقة يوقف بها الحرب ويضمن بها بقاء الأشراف في الحجاز فلم يفلح . وفي أغسطس وسط الملك علىّ الدولة الإنجليزية للصلح، ولكن الحكومة البريطانية حينما عرت وساطتها بين الفريقين صرحت

بأنها تقبل الوساطة إذا رض يالفريقان هذه الوساطة، فكان جواب ابن سعود:

« إنه أعطى عهداً للعالم الإسلامي أن تكون الحجاز ومكة للمسلمين عامة ».

وفي سبتمبر سنة ١٩٢٥ وصل فضيلة الشيخ المراغي وكان رئيساً للمنحكمة العليا الشرعية ومعه عبد الوهاب بك طلعت من موظفي السراي الملكية، ومعهما كتاب رقيق من جلالة مصر جواباً لكتاب سلطان نجد بمناسبة عزمه على زيارة مكة .

إنه ظرف ملائم جداً وفرصة نادرة لتوثيق العلائق بين مصر ونجد، وسلطان نجد كان ولا يزال معترفاً بزعامه مصر من وجهة الثقافة والمدنية، ويجب أن توطد العلائق بينه وبين مصر .

رأى عظمة السلطان بعد الاجتماع مع الوفد والتحات معه في شتى المباحث أن أقوم بالبحث التمهيدي، وما نصل إليه من النتائج نعرضه على عظمته أولاً بأول .

لقد سبقت الوفد عدة شائعات: منها أن الشريف علياً طلب بسط حماية مصر على الحجاز، وطلب أن ترسل الصدقات المعتاد إرسالها إلى مكة والمدينة إلى جدة، لتوزع على جنوده واللاجئين إليها من أهل مكة، ولكننا لم نقم وزناً لهذه الإشاعات أو غيرها .

لقد تبين من الباحثات الأولية أن الوفد جاء لغرض وساطة مصر لصالح بين الفريقين المتحاربين، فما المخرج من هذا الموقف الدقيق؟ إنا لا نريد إغضاب مصر، وسلطان نجد يحب ملك مصر ويحرص على اتصال حبل المودة معه، ولكننا لا نحب الصلح الآن، لأن حكم الأشراف في الحجاز قد آذن بالزوال،

فالمعلومات تصل رلينا عما تقاسية جدة والمدينة، وأن النصر قاب قوسين أو أدنى .

أخبرت الوفد بسعي الحكومة البريطانية قبل شهر للصلح، واعتذار السلطان عن قبول هذه الوساطة، وليس من اللياقة قبول توسط مصر الآن. ماذا حنته مصر من الملك حسين؟ ألم يرد المحمل المصري من جدة؟ ألم يتهم العثة المصرية بأنها تحاول تسميم المياه؟ ألم ينزع من كسوة الكعبة المشرفة اسم ملك مصر؟ ألم يعتمد إلى الإساءة إلى كل ما هو مصري؟ إذا كنتم تريدون أدلة أخرى فهاكم ملفات الحكومة الهاشمية، اقرأوها إن شئتم فإنها دليل ناطق على ماكنت تطويه جوائح الملك حسين نحو مصر وملكها وشعبها. ألا يحسن أن نبحت موضوعاً آخر يكون فيه الخيا للبلاد المقدسة ولأهلها الوافدين عليها من المسلمين؟ إذا وضعنا أساساً لذلك فإننا بلاشك نكون قد قمنا بواجب عظيم نحو ديننا، ونكون قد خدمنا الإسلام والمسلمين أجل خدمة. أما الأساس الذي كان نتيجه البحث فهو :

(١) أن الحجازيين من جهة الحكم، وللعالم الإسلامي من جهة الحقوق التي لم في البقاع المقدسة.

(٢) إجراء استفتاء عام لاختيار حاكم للحجاز تحت إشراف مندوبي العالم الإسلامي.

(٣) يجب أن تكون الشريعة الدستور للحجاز.

(٤) استقلال الحجاز الداخلي.

(٥) جعل الحجاز على الحياد.

(٦) لا تعقد حكومة الحجاز اتفاقات اقتصادية مع دولة غير إسلامية .

(٧) تحديد الحدود الحجازية، ووضع النظم المالية والاقتصادية ولاإدارية

موكول مندوبي الممالك والشعوب والإسلامية .

وقد وافق عظمة السلطان ابن سعود على هذا الأساس وقال للوفد المصري :

لكي تعلموا مقدار محبتي لمصر ولملكها، وللمنزلة العظيمة التي له في قلبي، أو كل جلالته أن يدعو في مصر مندوبي المسلمين لنظروا في هذه الأمور، وما يقررونه سأقوم بتنفيذه . فسر الوفد كثيرا وعد النتيجة التي وصل إليها خيراً من المهمة الأولى .

وسررنا نحن أيضاً، لزننا اكتسبنا مودة ملك مصر وهي شيء عظيم عندنا،

وسافر الوفد المصري حاملاً كتاب عظمة سلطان نجد المتضمن هذا الأساس .

وفي أكتوبر سنة ١٩٢٥ وصل جلالُ السلطنة السلطنة وزير إيران المفوض

بمصر، وعيّنُ الملك قنصل إيران الجنرال في سوريا إلى الحجاز، وأخيراً عظمة

السلطان بأنهما موفدان للوقوف على صحة أو كذب ما أشيع عن إصابة القبة

النبوية بالقنابل، وفي أثناء إقامتهما في المعسكر السلطاني في حذاء وفي مكة

بحثنا معهما شئون الحجاز : ما ضيه ومستقبله، وأخبرناهما بالكتاب الذي حمله

الوفد المصري، وبال دعوة التي سيوجهها جلالة ملك مصر إلى العالم الإسلامي

ضوع مسألة الحجاز على بساط البحث على الأساس الموضح في الكتاب، فأظهر

الوزير امتعاضه، وصرح بأن حكومته لا تقبل دعوة مثل هذه من مصر، لأن مصر

دولة غير مستقلة من كل وجه، ولا شأن لها بالبلاد المقدسة، وقال لعظمة

السلطان : لماذا لا يدعوا هو المسلمين في مكة؟ أليس هو أولى بالدعوة؟ أو ليس

هو صاحب الشأن؟ فأجابهم عظمته أنه اختار مصر لقربها من سائر البلاد

الإسلامية، ولأن الحجاز لا يزال في حالة حرب، وقد وكلت ملك مصر ولن أرجع في قلبي؛ فطلب الوفد الإيراني كتابا سن عظمة السلطان إلى رئيس حكومة إيران، يتضمن الأسس المتقدمة، ورجع الوزير مسروراً من زيارته بعدما وقف على الشيء الكثير من المعلومات من الإيرانيين المقيمين في الحجاز عن حكم الأشرف في الحجاز، وما تركه السلطان ابن السعود في نفوس الحجازيين من تواضع وحلمه، وبساطته ولطفه، وحسن معشره ولين جانبه، وأنه لولا خشونة الإخوان لكان حكم السلطان ابن السعود نعمة من نعم الله لا تعادلها نعمة.

مضى نحو أربعة أشهر والحرب لا تزال على حالها، ولم يصل إلى عظمته شيء عما تم في أمر المؤتمر: إن الحرب قد تطول أكثر من ذلك فلماذا لا يفتح طريق الحج من جهة «رابغ» فيقضي القضاء الأخير على جدة؟ لقد نجح هذا الطريق بعض النجاح في الحج الماضي، ووفد من الحجاج نحو أربعة آلاف نفس.

رأي عظمة السلطان أن يوفدني إلى مصر للبحث مع حكومتها في الإذن للحجاج من هذا الطريق، وقبل مغادرتي رابع دخلت جيوش السلطان المدينة ظافرة فكان ذلك مشعراً بأن حكم الأشرف في الحجاز في حالة النزاع.

وصلت إلى مصر في أواخر نوفمبر سنة ١٩٢٥م، وبعد مدة قصيرة استسلمت جدة آخر المدن الحجازية، وفرح المسلمون فرحاً عظيماً، وقابلت الصحف العربية والهندية هذا الحادث بحماسة شديدة، ونشر عظمة السلطان في ٢٤ ديسمبر سنة ١٩٢٥م منشوراً عاماً على أهل الحجاز: يحضهم على الإخلاء إلى السكون والانصراف إلى أعمالهم، وختم المنشور بالجملة التالية:

« وأما مستقبل البلاد فلا بد لتقريره من مؤتمر يشترك المسلمون جميعاً فيه

لينظروا مستقبل الحجاز ومصالحه».

العدول عن المؤتمر

وبعد أسبوعين من صدور المنشور الأول ، أصدر عظمة السلطان بلاغا عاما بتاريخ ٢٢ جمادي الآخرة - ٧ يناير سنة ١٩٢٦م يعلن فيه عدوله عن فكرة المؤتمر الإسلامي ، لأن دعوته التي وجهها إلى الشعوب الإسلامية وإلى قادة المسلمين لم يجبه عليها أحد ، وفي اليوم نفسه بايع جلalte أهل الحجاز ملكا على الحجاز ، فأصبح لقلب جلalte «ملك الحجاز وسلطان نجد وملحقاتها».

تمت هذه الخطوة الجديدة وأنا في مصر أفأوض حكومتها في شذون الحج ، ولم يُخف على أولو الأمر استياءهم ، كما أن التلغرافات والصحف نشرت الشيء الكثير من استياء الهنود وجمعية الخلافة على الأخص ، وعدوا ذلك نكثاً بوعود جلالة الملك الكثيرة ، وقد أبرقت لجلالة الملك أخبره بحقيقة الحالة في مصر والهند ، وإن جلalte لو كان تريث قليلاً لكسب الحجاز وقلوب المسلمين ، فأجابني جلalte ببرقية يشرح فيها الأسباب التي دعتة للتعجيل وهي إصرار أهل نجد والحجاز على ذلك ، وإن حالة البلاد تستدعي البت في هذا الأمر ، وقد نشرت الصحف هذه البرقية في حينها ، غير أن السلطان المصرية لم يقنعها هذا الجواب ، واعتقدت أن مسألة البيعة وما اكتنفها من طلب الحجازيين والنجديين إن هي إلا إحياء من حكومة الحجاز .

أما أنا شخصياً فكنت أهتم بموضوع المؤتمر الإسلامي لأنه وسيلة من وسائل تفاهم المسلمين وإصلاح كثير من الشؤون الدينية والاجتماعية ، وطريقة من الطرق المثلى التي يمكننا بها خدمة الحجاز وأهل الحجاز والوافدين على الحجاز .

فالحجاز يحتاج إلى كثير من وجوه الإصلاح ، وهو وحده لا يقوى على القيام

بأعباء هذا الإصلاح ، ويجب أن يستعين الحجاز بعقول المسلمين المدبرة . كما يجب على المسلمين أيضاً أن يعينوا الحجاز بالأموال للقيام بهذه الإصلاحات ، وواجب على حكومة الحجاز أن توسع صدرها لسماع كل نقد ، والأخذ بكل رأي صالح .

لقد سئلت في مصر عن المؤتمر الإسلامي هل عدل عنه نهائياً . سئلت هذا السؤال من كثير من كبار المصريين ورجال الحكم في ذلك الحين ، فلم أكن أملك الإجابة ، لأن الفصل في هذا الموضوع الخطير في مكة .

لقد كتب إلى كثير من أصدقائي الهنود يسألون نفس السؤال ، ويلحون عليّ في بذل نفوذي لعقد المؤتمر ، لأن هذا العمل من أعظم الأعمال لخدمة الإسلام والمسلمين .

غادرت مصر راجعاً إلى مكة فاجتمعت بجلالة الملك عبدالعزيز ؛ وأخبرته عنه رحلتي والأثر الحسن الذي تركته في مصر حكومة وشعباً ، ولم أخف مبلغ التأثير السيء الذي تركه إعلان الملكية في مصر والهند ، ولكن ليس في الإمكان الرجوع فيما تم طبعاً ، فماذا يمكن أن نعمل للقضاء على سوء الأثر .

بحثت مع جلالة الملك مسألة المؤتمر الإسلامي فلم أجد جلالته مستعداً لقبول الفكرة فتركت الموضوع للزمن .

تكررت الكتب والتلغرافات من الهند وغيرها من الممالك الإسلامية بطلب عقد المؤتمر ، ووصل عيْنُ الملك قنصل إيران العام في سوريا للبحث مع جلالة الملك في شئون الحج الإيراني ومسائل القباب والأضرحة المهدمة ، وأخبرني أن المرحوم إبراهيم وجيه باشا وكيل وزارة الخارجية لا يزال ينتظر مني أن أخبره عن مسألة عقد المؤتمر الإسلامي ، وبالطبع أخبرت جلالة الملك بذلك فكانت هذه

العوامل الكثيرة لها أثرها في نفسه، فقبل عقد المؤتمر الإسلامي في مكة على شرط ألا يتعرض المؤتمر لمسألة الحكم في الحجاز، وعلى ذلك أرسلت الدعوة إلى الشعوب الإسلامية والحكومات الإسلامية، وحدد يوم ٢٠ القعدة سنة ١٣٤٤هـ لاجتماع المؤتمر، وقد لبى الدعوة أكثر من دعوا إلا مصر فأنكر الملك فؤاد وصول الدعوة أولاً ثم رفض الدعوة بعد ذلك ولكن مصر أرسلت مندوبها بعد ذلك في الوزارة الائتلافية التي كان يرأسها عدلي يكن باشا.

فشل المؤتمر

ليس هنالك من شك في أن الذين حضروا إلى المؤتمر كانت تحذوهم الرغبة في إصلاح الحجاز والخير للبلاد المقدسة، وسكانها والوفدين عليها من جميع طوائف المسلمين، وليس من شك في أن الملك بن سعود لا يقل رغبة عن هؤلاء. فلماذا إذن لم ينجح المؤتمر في الغرض الذي عقد من أجله ما دامت رغبة الملك والمؤتمرين تلتقي عند خير الحجاز والمسلمين؟

إن السبب الرئيسي هو عدم التجانس بين أعضاء المؤتمر، وبينهم وبين النجديين من جهة أخرى. فما يعده النجديون أساساً للعمل ويتعصبون له لا يشاركهم فيه بعض الشعوب الإسلامية الأخرى وما يعتقده الهنود من وسائل الإصلاح لا يشاركهم فيه الجاويون والهنود من أهل الحديث.

إن النجديين يرون أن التوحيد هو الداء الوحيد لما أصاب العالم الإسلامي من الأمراض. لقد كانت مكة والمدين مهبط الوحي ومصدر التشريع، فيجب أن نبدأ فيهما بهدم القبور وتسويتها، وهدم القباب والمساجد المقامة على القبور، وهدم كل مكان تشتم منه رائحة الإخلال بالتوحيد، كما يجب إبطال جميع البدع من الحجاز.

إن سائر المؤتمرين سياسيون أكثر منهم دينيين، فهم - وإن كانوا يتفقدون مع النجديين على إصلاح حالة العالم الإسلام وإصلاح الحجاز- ولكنهم لا يتفقدون مع النجديين في طريقة الإصلاح، ويقولون: إن العالم الآن يخطف تمام الاختلاف عنه قبل ثلاثة عشر قوفاً. وإن الواجب الآن تأليف القلوب وجمع الكلمة والتدرج بالإصلاح، وهنا يقع الخلاف بين الفريقين ويشدد النزاع. ولا سبيل إلى التوفيق.

وهناك مسألة سياسية عربية يرى بعض المؤتمرين إثارتها، وترى حكومة الحجاز عدم الخوض فيها.

لقد كان الملك ابن السعود حكيماً، فإنه في حفلة افتتاح المؤتمر منح الحرية المطلقة للمؤتمرين، إلا فيما يتعلق بالسياسة الدولية، وما بين بعض الشعوب الإسلامية من خلاف، ولكن بعض أعضاء المؤتمر لم يصغ إلى نصيح الملك ابن سعود، وحاولوا البحث في مشاكل سياسة لم يكن هنالك حاجة إلى إثارتها، ولا سيما وحاجات الحجاز كثرة، ووجوه الإصلاح عديدة. ولكنهم على كل حال كان رائدهم حسن النية وخير المسلمين.

أريد أن أذكر القصة الآتية، لأنها تدل على ما كان يسود جو المؤتمر وما كانت حكومة الحجاز وقتئذ تعانیه، لأنها لا تريد أن تسوء علاقتها السياسية مع الحكومات الأجنبية، كما لا تريد أن تمس عوطف أعضاء المؤتمر المتحمسين.

أخبرني جلالة الملك أن السيد رشيد رضا والشيخ عبدا بن بليهد رئيس القضاة في ذلك الوقت، على أن يجتمع أعضاء مؤتمر جميعاً أمام الكعبة، ويتعاهدوا في اليوم السابع أو الثامن من ذي الحجة صباحاً بأنهم سيسعون بكل قواهم لتخليص جزيرة العرب من نفوذ الأجانب، وأنهم يعتقدون أن لهذا تأثيراً

عظيماً في الرأي الإسلامي .

فقلت لجلالته: إن نية إخواننا حسنة بلا شك، وإنهم لا يريدون إلا الخير للإسلام والمسلمين، وإن ما يتمنونه هو أمنية كل مسلم، ولكن ما هي الفائدة من هذا العهد؟ إن من يريد أن يعمل فمجال العمل أمامه واسع، وعمل يكل حال فالمشروع إلى الآن لم يعرض على لجنة المشروعات .

فقال لجلالته: إن الجماعة سيجتمعون عندي بعد العشاء، وكنا في اليوم الرابع من شهر ذي الحجة فيجب أن تحضر لتتفقوا جميعاً على رأي واحد .

حضرنا عند جلالة الملك بعد صلاة العشاء، وكان الحاضرون هم الشيخ عبدا ابن بليهد ، والسيد رشيد رضا، والسيد أمين الحسيني، والمرحوم محمد علي، ومولانا شوكت علي، وكاتب هذه الأسطر، والدكتور عبدا الدمولوجي، والشيخ يوسف ياسين والشيخ محمد أبوزيد المصري وغيرهم ممن لا تحضرني أسماؤهم الآن .

افتتح الحديث الشيخ عبدا بن بليهد، فقرأ صيغة القَسَم، وشرح الأغراض من العهد، والروح الجديدة التي تسرى في المسلمين والعرب حين سماعهم ذلك . وبعد أن ساد المجلس السكون طلب مني جلالة الملك رأيي .

فطلبت من الشيخ ابن بليهد الإيضاح عن المقصود بجزيرة العرب . فقال: إن المراد منها فلسطين -سوريا- العراق - وسواحل الجزيرة التي للأجانب نفوذ فيها .

فقلت: إنني أشكر أصحاب الفكرة على هذه الروح الطيبة . ولا شك أن كل عربي ومسلم يتمنى أن يتمتع العرب ف يكل ناحية بما يتمتع به غيرهم من الاستقلال . ولم هذه العجلة؟ إن تركيا ومصر والأفغان واليمن قد أرسلوا

مندوبين إلى المؤتمر؛ وهم في طريقهم إليه. أليس من الحكمة أن نأخذ رأيهم في الموضوع الخطير، وهم أعلم منا بالسياسة الدولية، وأعرف بطرق معالجة هذه الشئون؟ فإذا وافقوا على هذا الاقتراح فإن لموافقتهم من القوة المعنوية ما ليس لموافقتنا. فقبل الجميع هذا الاقتراح، وسر جلاله الملك من هذه الفكرة التي هيأت له فرصة للتفكير.

وبالطبع لم يقبل أحد من مندوبي الدول هذا الاقتراح. لئنه توريط لدولهم في مشكلة هم في غنى عنها.

وقد انتهى المؤتمر الإسلامي الأول بقرارات ورغبات وتمنيات كل نصيبها الإهمال من العالم الإسلامي. لأنه لم يعد لها القوة ولم يتمكن المندوبون من جمع الإعانات التي كانوا يؤملون جمعها، وحكومة الحجاز لا تستطيع أن تقوم بما طلب منها، فليس لديها من المال ما تستطيع بها تنفيذ جميع رغبات العالم الإسلامي. وبالجمله فإن جميع الآمال التي كنا نرمي إليها من المؤتمر الإسلامي من الإصلاح الديني والاجتماعي العام، وإصلاح البلاد المقدسة إصلاحاً يتفق مع مقتضيات هذا الزمن ورفع مستوى الحجاز إلى المستوى اللائق بجلاله وقديسيته، قد فشلت. فلعل المسلمين ينتفعون من أغلاطهم، ويعملون لقعد مؤتمر آخر يعمدون فيه إلى الإصلاح، ويتركون المساعي السياسية التي ليس من ورائها فائدة إيجابية.

ابن السعود وإمام صنعاء

فم تكن هنالك صلة مراسلة أو غيرها بين سعود وإمام صنعاء حتى سنة ١٩١٩م، فإن حادثة الحجة اليماني^(١) في عسير كانت سبب التعارف وتبادل

(١) من يريد تفاصيل مخابرات اليمن فليراجع الكتاب الأخضر الذي أصدرته وزارة خارجية الحجاز.

الرسائل من وقت لآخر، ثم أخذت مصالح الحكومتين في التضارب بعد موت السيد محمد علي الإدريسي وانتهاز الإمام يحيى الفرصة لطي صحيفة حكمهم من عسير ، وتقدم سلطان نجد في الحجاز، كل هذا جعل الفريقين وجهاً لوجه . فإن الأدارسة بعد ما أحسوا بالخطر المحدق بهم ولوا وجههم شطر ابن سعود حليف محمد علي الإدريسي . فأعلن الحماية على عسير، وأخبر الإمام يحيى بذلك في خريف سنة ١٩٢٦م . ثم أخذ الفريقان يتبادلان الكتب والوفود للوصول إلى حل حاسم خاص بالحدود والقبائل . فلم يوفقوا إلى ذلك، لأن حسن النية لم يكن متوفراً من كل وجه . وأخيراً اضطر ابن سعود لامتناع الحسام بعد أن أعيته الخيل ، وبعد أن انتهك الإمام حرمة بلاده باحتلال قسم منها . وقد تمكن الملك عبدالعزيز في مدة قصيرة من التقدم في تهامة حتى الحديدة . غير أنه - وهو الرجل العاقل النافذ البصر - لم يكن يرمي في الحقيقة إلى فتح اليمن . لزن ذل يلقي عليه مسئوليات جديدة، وربما يعرض البلاد العربية للتدخل الأجنبي، والملك عبدالعزيز يفضل أن يفتح قلب إمام اليمن ويكتسب وده وصداقته أكثر من فتح اليمن نفسها . وقد وصل إلى الغرض الذي كان يرمي إليه . فإمام اليمن قد أفهمته الحوادث قوة ابن سعود، وأن ما توهمه من ضعف لم يكن إلا حلماء وطول أناة، وقد ضرب الملك عبدالعزيز بالصلح الذي عقده مع إمام اليمن أفضل الأمثال في التسامح واكتساب صداقة خصمه، كما ضرب أفضل الأمثال في حبه للتفاهم مع أمراء العرب، وسعيه للاتحاد العربي الذي ينشده أحرار العرب ومفكروهم من نصفقرن . ولعلنا نرى في المستقبل القريب الرغبة الصادقة من ملوكهم وأمرائهم في التفاهم وإزالة ما بينهم من إحن شخصية، وتقديم المصالح المشتركة العامة على الاعتبارات الشخصية . فإن مجد العرب لا يسترد إلا باجتماع كلمة العرب واتحادهم . بصر ا العرب وملوكهم لما فيه خيرهم

وصلا حهم .

ويسرنا أن تنبعث روح جديدة من مصر تدعو إلى التقارب والتفاهم، وتبادل المصالح واتخاذ جميع الوسائل الممكنة، وتذليل الصعوبات في خلق اتحاد عربي عملي يرتفع به شأن العرب والمسلمين ويقضي إن شاء الله على خطر اليهود في فلسطين بعد الكارثة التي منى بها العرب - بسبب تفرقهم وعدم إعطائهم الأمور حقها - في حرب فلسطين .